أثر محاورة كراتيليوس لأفلاطون في الفكر اللغوي عند العرب

– الفارابي أنموذجا *

د. فريدة بوزيداني

المدرسة العليا للاساتذة

– بوزريعة –

تمهيد:

اللغة كما هو متعارف عليه أداة التواصل بين البشر و هذه هي وظيفتها الأولى رغم ما كان من اختلاف و تعدد في المصطلح بين المدلول العام الذي يعني كل نظام من الإشارات يكون هدفه التواصل مثل لغة الصم و البكم و المدلول الضيق و هو يعني ذلك النظام الذي يؤدى نطقا و له نفس الهيكلة عند كل الألسن (أصوات ، كلمات، جمل) .

و للغة نظام خاص بها يقوم على تركيب الوحدات من مستوى إلى آخر ، من أول مستوياتها و هو المستوى الصوتي ثم إلى مستوى الوحدات الدالة (كلمات ، أجزاء من كلمات و مستوى التراكيب و هو المستوى الذي تنتظم فيه الكلمات (الوحدات الدالة) لإنشاء جمل ذات معنى وعندها نتحدث عن قدرة و إمكانية على تحقيق نظام اللغة لنجد هذه القدرة تشمل كل الناس دون استثناء و البحث في اللغة هو بحث في جوهرها، هو وصف لطبيعتها وتفكيك لمكوناتها وعناصرها الأساسية .

*– هذا المقال جزء من بحث أعمل عليه لأجل إبراز الأثر الكبير الذي تركته مؤلفات الفلاسفة و المفكرين اليونانيين على تفكير علمائنا و مفكرينا المسلمين و الطرائق التي أفادوا بها من أعمال هؤلاء و كيف جعلوها منطلقات لفكر متقدم لم توقفه إلا عجلة التاريخ الهدامة .

تعريف محاورة كراتيليوس:

تعد المحاورة أقدم الأعمال المتخصصة في فلسفة اللغة و هي لم تخرج عن طريقة عمل أفلاطون في كتاباته التي خلفها لنا ، يعني ذ لك محافظته على أسلوبه الذائع في المزج بين الأدب و الفلسفة ، إذ تعد بالفعل نموذجا يبرز لنا عبقرية هذا الرجل .

الموضوع الرئيسي للمحاورة هو أصل اللغة و هو من أول مباحث فلسفة اللغة في العالم هذه الأخيرة التي جعل الباحثون عالم الجمال " بندتو كروتشيه " أول من تكلم عن مصطلح " فلسفة اللغة ".

يتفق جل الباحثين أن البحث في فلسفة اللغة " يتعلق " باللغة منظورا إليها فلسفيا "[1] .

محاورة كراتيليوس لأفلاطون ركزت بشكل أساسي على موضوع أصل اللغة، وأراد أفلاطون من خلالها تقرير نظريته في (محاكاة) الاسم ل(طبيعة) المسمى، وتأكيد اعتراضه على فرضيتي الطبيعة والاصطلاح التي سادت عند

فلاسفة عصره تُستهل المحاورة بالنص التالي: " أود أن أعلمك يا سقراط، بأن صديقنا كراتيليوس كان يناقش موضوع الأسماء، وهو يقول إنها طبيعية وليست اصطلاحية، لا يشذ عن ذلك، أيّ قدر من النطق الإنساني الذي اتفق الناس على استخدامه، وأنه يوجد فيها حقيقة أو صواب، هما كذلك بالنسبة لليونانيين ولغيرهم من البرابرة"[2] .

نص المحاورة إذن يقدم تعريفا مغايرا للمفهوم الحديث لمبدأ الاصطلاح إذ يؤكد أفلاطون على هذا المعنى حيث يورد على لسان سقراط: " ما تعنيه هو أن اسم أي شيء هو الذي يوافق أي شخص على أن يطلقه عليه فحسب" [3] ويقوم بعدها سقراط بتفنيد هذا المبدأ، ويوصل محاوره إلى الإقرار بالنتيجة التالية: " إذن سيؤدي بنا الحوار إلى استنتاج أن الأسماء ينبغي أن تطلق وفقا لعملية طبيعية، وبألة طبيعية وليس على هوانا، وبهذه الطريقة دون غيرها سنطلق على الأشياء أسماءها الصحيحة " [4] ، وقد خصص جزءاً كبيراً من المحاورة لعرض ما توصل إليه حول اشتقاق عدد من الكلمات اليونانية، وصل بعدها إلى نتائج متعلقة بإطلاق الأسماء ووظيفتها وصحتها .

أما في العصر الحديث و مع تطور فكر الإنسان فقد تغيرت نظرته إلى اللغة حيث رأى أنها نظام من العلامات يتواضع عليه مستخدمو اللغة و هذا ما يمكّن المرسل والمستقبل داخل هذا النظام اللغوي من التواصل و حينها لا يمكن لمرسل واحد أو مستقبل واحد تغيير هذه المواضعات ، ووحدها الجماعة قادرة على ذلك .

بالعودة إلى صاحب المحاورة مرة أخرى نجده قد ذكر فيه أيضا أسئلة من قبيل: من هم مُطلقي الأسماء؟ هل هم الآلهة؟ أم البشر؟. وقد توصل إلى أنهم البشر لا الآلهة رغم كل ما لحقه من انتقادات كما صرح أن مُطلق الأسماء هو المُشرِع الذي يضع القوانين في المجتمع، وهو الأندر وجودا بين الحرفيين كما يقول.

اهتم أفلاطون أيضا بالتذكير أن الاسم عندما يطلق على المسمى، فهو كأي عمل آخر يعني أنه يكون في أكمل حالاته إذا كان تعبيره عن طبيعة الشيء تاما، ويكون أدنى إذا كان التعبير ناقصا، ويكون خاطئا إذا ابتعد عن طبيعة الشيء.

كما يرى أفلاطون أن الأسماء جزء من الكلام و أن الكلام نوع من الفعل و التسمية أيضا نوع من الفعل و يصدق عليه ما قيل عن الأفعال من قبل إذ يقول : " أليس المتكلم الناجح في الواقع هو الذي يتكلم بالطريقة الطبيعية للكلام ، و بالطريقة التي ينبغي أن تكون و بالآلة الطبيعية و أي شيء آخر للكلام سينتج عنه الخطأ و الفشل " [5] و الفعل عنده (هو نوع من الوجود يصدر عن الموجودات)، و هو هنا ينطلق من تأمله لما هو موجود من وضع للغة و في هذا يكون السباق لمثل هذه الملاحظة عن طبيعة اللغة.

ما فلسفة اللغة

معلوم أن الفلسفة هي أحد مستويات تفكير الإنسان تبرز رغبته في المعرفة والبحث والاكتشاف والتفكير ، تهتم بالبحث عن العلاقات بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان و مجتمعه، وهي نابعة من سؤال الواقع وحب المعرفة والاستطلاع والاكتشاف ، هي وجه معبر عن طرائق عمل فكر الإنسان منذ أجيال، ف " البحث في الفلسفة هو أولا و قبل كل شيء موقف من الحياة ، و هو يمثل أحد مستويات تفكير الإنسان في هذه الحياة ..." [6]

أصل كلمة فلسفة يوناني يتألف من مقطعين:

فيلوس Philos و تعني (محب) و سوفيا Sophia و تعني (حكمة)، فيكون معناها (محب الحكمة)، و قد توقف أفلاطون في المحاورة و أشار إلى أصل الكلمة سوفيا (عد للمحاورة) .

و اليوم لم تعد الفلسفة تعني الحكمة بمفهومها القديم بل جنحت إلى التقنية و خلف التأمل التحليل و التحليل المفاهيمي، و توسعت اهتماماتها إلى مختلف مجالات المعرفة و الفن و اللغة والأخلاق ...

تنقسم الفلسفة مبدئيا إلى فلسفة نظرية وتشمل كل ما ينبغي أن يعلم من المعارف كالرياضيات والطبيعيات والإلهيات من علم للفلك، وعلم للنبات وعلم للحيوان، والحساب، الهندسة أما الفلسفة العملية فتعنى بكل ما ينبغي أن يُعمل به من المعارف كالأخلاق و الأسرة والسياسة تنشغل الفلسفة بمسائل متعددة أهمها :

1- الميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة : يقسم إلى قسمين:

أولاً علم الوجود يتحدث عن الموجودات

ثانيا علم الكون و يهتم بالكون الطبيعي ومستقبله وتاريخه.

2-المنطق: يدرس صور الفكر وهو يعتمد على الحجة والبرهان والقوانين التي تتحكم بالتفكير والاستدلال

3- الأخلاق: تدرس المساواة والعدل وواجبات الإنسان نحو نفسه ونحو الآخر.

4- فلسفة الجمال: تدرس الإبداع وكيفية تفاعل الانسان مع الفنون .

5- فلسفة الدين:تهتم بطبيعة المعتقدات والقيم والعلاقة الروحية .

هذا بشكل عام ما نقوله عن الفلسفة و لأن فلسفة اللغة قد أصبحت من مباحث هذه الأخيرة فلا بد أولا أن نعرف معنى اللغة ، فاللغة كائن حي يعيش مع الإنسان ، بها يعبر عن حياته و مطامحه و اللغة والفكر شيء واحد و الإنسان منذ بدأ يتأمل و يسأل – في الحضارات القديمة / اليونان – افترض بل اعتقد أن اللغة وضعتها قوة إلهية ، و قد ظل ذاك الاعتقاد سائدا حتى جاء أصحاب النظرة التواضعية (التواطئية) الذين قالوا بأن الأسماء يطلقها الناس على الأشياء بالاتفاق والتواضع عليها . ونلحظ هنا محاولة أفلاطون في الجمع بين النظرتين بل و تغليب إحداهما على الأخرى بشكل واضح ، فهو يقر بوجود تدخل إلهي في تسمية الأشياء بأسمائها على أن لا يزيد ذلك عن مستوى محاكاة الأسماء لمسمياتها ، كما أنه يؤكد على وجود جهد للإنسان في هذا الجانب ، ودليله على ذلك أنه يمكن إطلاق الاسم الواحد على الضدين (أنظر محاورة كراتيليوس) .

مع تقدم الزمن و تقدم الفكر الإنساني تغيرت نظرة الإنسان للغة أيضا فظهرت اتجاهات عديدة تناولت اللغة من مناحي شتى ولكن بقي منطلقها واحدا و هي أنها لا يمكن أن تسمى لغة من غير إفادة المعنى ، فاللغة إذن أداء لساني يبين عن وجوه المعاني و تغير نظرة الإنسان تلك إلى اللغة مكنته من رؤية أنها نظام من العلامات يتواضع عليه مستخدمو اللغة و هذا ما يمكّن المرسل والمستقبل داخل هذا النظام اللغوي من التواصل و حينها لا يمكن لمرسل واحد أو مستقبل واحد تغيير هذه المواضعات ، وحدها الجماعة قادرة على ذلك و هذا طبعا ما تقوم عليه نظرة المشتغلين على اللغة اليوم و تكون فلسفة اللغة إذن استفهام حول المعنى و الوجود .

واحد من فلاسفة المسلمين العظماء اهتم جدا بعلاقة "اللغة بالفكر" و أفاد كثيرا من جهود القدماء من فلاسفة اليونان و بدا ذلك جليا في المؤلفات التي خلفها و وصلتنا ، هو أبو نصر الفارابي الذي أكدت أكثر التراجم لحياته

أصله التركي ، ولد في فاراب عام 260ه/ 860م ، عاش في شبابه يعمل في مجال بعيد عن مجال العلم إذ عمل ناطورا في الحدائق و ظل في بلدته حتى بلغ الأربعين أو الخمسين في بعض الأقوال ثم غادر بلدته متوجها إلى بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية و فيها أتيحت له فرص الدراسة ، فدرس الطب و الموسيقى و العلوم المختلفة كالفلك و الرياضيات وتعلم اللغة العربية بنحوها و صرفها و البلاغة و كل صروفها ، كما أنه لم ينس التبحر في الفلسفة و المنطق " فتلقاها على يد أساتذة الفلسفة و المنطق في عصره ، يوحنا بن جيلان النصراني ، و أبو بشر متى بن يونس الذي ترجم أكثر كتب التراث اليوناني .. ." [7] ، و قد ترك الفارابي مؤلفات عديدة أهمها : إحصاء العلوم، الألفاظ المستعملة في المنطق ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، كتاب الواحد و الوحدة ، كتاب الجدل ، كتاب الحروف ، كتاب البرهان ، كتاب العبارة ، كتاب السياسة المدنية و عديد الرسائل أهمها : رسالة في إثبات المفارقات ،رسالة في أغراض ما بعد الطبيعة، رسالة في التعليقات .

اعتبر الفارابي أن البحث في اللغة و علمها لا يخرج عن البحث الفلسفي بل راح يؤكد أن هذا الأخير – علم اللغة – ضروري لدراسة المنطق و باقي العلوم لما رآه من ارتباط وثيق بين الفكر و اللغة و هو في كتبه عن علم اللغة يؤكد في أكثر من موضع على علاقتها بالفكر و يحلل أوضاعها و علاقاتها بالفكر و هذا ما تنبه له المحدثون من علماء و باحثين في مجالات اللسانيات و علم النفس فقد قالوا بفكرة أن " الفكر هو الكلام منقوص منه الصوت "[8] ، و الفارابي يعتبر " علم اللغة هو علم الألفاظ الدالة عند كل أمة على قوانين تلك الألفاظ ، و... هو الذي يعطي قوانين النطق الخارج أي القول الخارج بالصوت و هو الذي به تكون عبارة اللسان عما في الضمير "[9] ، و تنشأ اللغة حسبه فطرية في المعاني ، مواضعة في اللفظ ، يقول " النطق هو القول الخارج بالصوت ، و هو الذي به تكون عبارة اللسان عما في الضمير ، و هو أيضا القول المركوز في النفس و هو المعقولات التي تدل عليها الألفاظ " [10] و هو هنا لا يبتعد عن قول أفلاطون السابق المذكور في المحاورة (أنظر المحاورة) .

أما عن اللغة العربية فقد رأى أنها تختلف حسبه عن غيرها من اللغات –وقتها- إلا أنه تكلم عن التقاء لأصولها وخصائصها و في هذا يكون قد سبق اكتشاف علماء اللغة الغربيين عندما تحدثوا عن أصول اللغة .

كيف تأثر الفارابي بمحاورة كراتيليوس :

كان اللقاء الحضاري بين العرب و الإغريق فاتحة لتأثرات كثيرة بهم تماما كما حدث للغرب مع حضارة المسلمين ، إذ إنه " لما اطلع المسلمون و المسيحيون على التراث الإغريقي أعجبوا به إعجابا شديدا ..." [11] و عرف العرب أفلاطون من خلال معرفتهم بالتراث الفلسفي اليوناني بصورة عامة إذ تحكي كتب التاريخ كيف وصل إليهم هذا التراث بوساطة أكثر من طريق ، لكن أبرزها تلك التي انتقل منها هذا التراث و معه كتب أفلاطون و أفكاره و هي المدارس السريانية و خاصة مدرسة حران و مدرسة أنطاكية التي نقلت إليها مكتبة الإسكندرية في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ، إضافة إلى الكنائس المسيحية المنتشرة في الشام وبلاد مابين النهرين ، وسائط الانتقال هذه هي التي تفسر لنا ذكر بعض علماء المسلمين للكتب اليونانية فقد ذكر ابن النديم في الفهرست محاورة قراطوليس ، و ذكر ابن أبي أصيبعة في كتابه " عيون الإنباء في طبقات الأطباء " كتاب قراطلس أما الفارابي في " فلسفة أفلاطون ، أجزاؤها و مراتب أجزائها " فيظهر التشابه و التأثر الكبير من الفارابي ب " المحاورة

" و جاء كتاب " الحروف " و " شرح كتاب أرسطو طاليس في العبارة " ليكون الدليل الأكبر، حيث نجد تشابها حتى في الأمثلة المضروبة .

يعد الفارابي الوسيط بين نظرية المحاكاة التي قال بها أفلاطون و علماء اللغة المسلمين نظرا لكل ما نجده من تأثر بما خلفه فلاسفة اليونان.

فبعد أن طغى نهج الفقهاء القدامى في دراستهم للغة و شابه ما كانت عليه دراساتهم لقضايا الفقه و أصول الدين جاء الفارابي الذي ملء عقله بمنطق اليونانيين و حاول أن يضع للغة العربية – التي درسها في مختلف أوجهها و تغيراتها المختلفة و اختبر كينونتها – " من القواعد و المبادئ

البرهانية و المنطقية ما يجعلها تبدو في صورة منضبطة بعيدة عن المبالغات و التناقضات و الأوهام و الخرافات " [12] أخيرا يمكننا الإشارة أن نقاط الالتقاء بين ما قاله الفارابي و أفلاطون متعددة و كثيرة غير النقطة التي أشرنا إليها هنا و كما سبقنا القول فإن الفارابي قد تجاوز نظيره اليوناني في أمور كثيرة متعلقة بعلم اللغة بما يدل و لا شك على غزارة علمه و سعة فكره .

مصادر و مراجع البحث :

1- أفلاطون: محاورة كراتليوس (في فلسفة اللغة) ، تر: د/ عزمي طه السيد أحمد، وزارة الثقافة الطبعة الأولى ، عمان 1995.

2- حسن الفاتح قريب الله (د) ، الحياة الفكرية في ضوء الفلسفة الإسلامية ، مطبعة الأمانة ، مصر .

3- زينب عفيفي(د) ، فلسفة اللغة عند الفارابي ، تصدير: د/ عاطف العراقي ، دار قباء للطباعة و النشر ، القاهرة 1997.

4- الفارابي أبو نصر : -إحصاء العلوم ، تح: د/ عثمان أمين ، دار الفكر العربي .

- كتاب الحروف ، تح: محسن مهدي ، بيروت 1970.

- رسائل الفارابي ، تح: موفق فوزي الجبر، دار الينابيع ، ط 1، دمشق 2006 .

5- ليف فيكوتسكي ، الفكر و اللغة ، النظرية الثقافية التاريخية ، تر: عبد القادر قنيني ، إفريقيا الشرق ، المغرب 2013.

6-مجموعة من الأكاديميين (تأليف) ، فلسفة اللغة ، ابن النديم للنشر و التوزيع ، ط1 ، الجزائر 2013.

7- محمود قاسم(د) ، في النفس و العقل لفلاسفة الإغريق و الإسلام، مكتبة الانجلو المصرية ، ط3، القاهرة 1962.

الهوامش

[1]– مجموعة من الأكاديميين (تأليف) ،فلسفة اللغة ، ابن النديم للنشر و التوزيع ، ط 1، الجزائر 2013 ، ص 13 .

[2] – أفلاطون ، محاورة كراتيليوس (في فلسفة اللغة) ، تر: د/ عزمي طه السيد أحمد، وزارة الثقافة ، ط1، عمان1995 ، ص 91 .

[3] – نفسه ، ص 93.

[4]– المصدر السابق ، ص 98.

[5]– نفسه ، الصفحة نفسها .

[6]– حسن الفاتح قريب الله (د) ، الحياة الفكرية في ضوء الفلسفة الإسلامية ، ، مطبعة الأمانة ، مصر ، د.ت ، ص ص 5، 6 .

[7] – زينب عفيفي (د) ، فلسفة اللغة عند الفارابي ،دار قباء للطباعة و النشر، القاهرة 1997 ، ص28.

[8] – ليف فيكوتسكي ، الفكر و اللغة ، تر: عبد القادر قنيني ، افريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ص 16.

[9] –الفارابي ، إحصاء العلوم ، ص 45 و ص ص 62، 63.

[10] – المصدر السابق ، ص 53.

[11] – محمود قاسم (د) ، في النفس و العقل لفلاسفة الإغريق و الإسلام، مكتبة الانجلو المصرية ، ط3، القاهرة 1962.

[12] – زينب عفيفي ، فلسفة اللغة عند الفارابي ، ص 17.